على طلخان (١)

على طلخان راجل مجدعته عند الناس معروفة
أبوموسى نقبه وكرامته عند الكل معروفة
من موال شعبى كان يغنى على
قهاوى المحلة.. ثم شبرا الخيمة

فى عام ١٩٨٩ دخل عم على طلخان إلى غرفتى مبتسما ومتجهما فى آن واحد، ترك على المكتب صندوقا من الكرتون به عدد كبير من شرائط الكاسيت وقال «خللى ده عندك واسمعه لما ربنا يسهل وأموت». ذهلت لكن الصندوق ظل متربعا على المكتب فهو وديعة وأنا أحاذر أن ألمسه خوفا من أن يكون ذلك إيذانا برحيل الزميل النقابى الشجاع المثقف البدائى العامل والشيخ والفلاح معا، وعندما التقيته بعدها بأيام حاولت أن أعتذر «يا عم على أنا ملخوم ولم أستمع للشرائط».. لكن وقبل أن أكمل قال «مش دلوقت، إوعى تسمعهم دلوقت لما أتوكل على الله ابقى اسمعهم واكتب عنى كلمتين».

وعندما رحل عم على فتحت الصندوق ووجدت به ثمانية شرائط كاسيت ملفوفة بعناية ومكتوب عليها «مذكرات على طلخان - الجزء الأول» وبدأت فى الاستماع، عاد عم على طلخان متألقا بأكثر كثيرا مما توقعت. سمعته وهو يحكى قصصا تشبه الأساطير لزعيم شعبى أو بالدقة شعبوى يصنع نفسه وينضجها.

ويبدو أن الرجل لا يعرف تاريخ ميلاده فهو إذ يسجل مذكراته عام ١٩٨٩ يقول إن عمره حوالى ٧٥ سنة أى أنه ولد حوالى ١٩١٤. البلدة نهطاى مركز زفتى، الأب فلاح ميسور يمتلك ستة أفدنة لكنه بددها جميعا ولم يتبق لديه سوى بضعة قراريط، الفقر أحاط بالأسرة ولهذا لم يصمد على طويلا فى المدرسة، كان «حيلة» أمه وعاش فى القرية بطولها وعرضها ثم قرصه الفقر فسافر إلى المحلة ليعمل فى المصنع على أربعة أنوال لمدة ١٢

ساعة «شغلانة تهد الحيل والأجرة ٢٥ مليما فى اليوم»، واستمع إليه «فى المحلة ماكنش فيه أى وعى نقابى ولا عمالى ولا سياسى والشركة شجعت على تقسيم العمال إلى بلديات.. غربية - منوفية - دقهلية، ولكل مجموعة زعيم تتعصب له وبه ضد الآخرين وكثيرا ما كانت تقوم خناقات تستخدم فيها العصى والشوم، وأنا أصبحت وبلا منازع زعيم عمال الغربية وكنا نلتقى فى بوظة لنتسامر وندردش ونساند بعضنا البعض فى الأزمات وتعلمت أن المجدعة والفتونة تملى عليك أن تتمسك بالحق والعدل، وكنت كانى مربوط بحبل بقريتى آذهب آخر الأسبوع وأرجع محملا بالزوادة عيش ومش تكفى أسبوعا بأكمله، لأن مفيش فلوس تسمح لى أن أدوق أكل البندر ولا حتى قرص طعمية»، لكن العودة للقرية كان لها مذاق مرير فعلى الفتوة المهاب من الجميع واللى لا يمكن كلمته تنزل الأرض، يعود إلى القرية ليجد عمدة جبار وطاغية تآمر مع بنوك الرهونات إنها ترهن أرض فقراء الفلاحين ثم تبيعها بالمزاد وهو المشترى الوحيد، فلا أحد من الفلاحين يمتلك قرشا، واستحوذ العمدة على أغلب زمام القرية حتى أسماه الفلاحون «الحوت الكبير».

وأمضى مع عم على «الحوت امتلك أغلب الأرض ورفع الإيجار فى العلالى لحد ما وصل إلى ١١ جنيها للفدان وهو مبلغ كبير جدا» الفلاحون يطحنون ولا وعى ولا قدرة ولا حيلة، لكن الجميع يلتفون مساء كل خميس حول «على» الآتى من المحلة والذى يتحدث عن «الحق والعدل» واستمع له «فى المحلة قعدة البوظة سهلة تهز العصاية وتحكم بالحق والعدل والجميع يطيعون، لكن الحوت لا عنده حق ولا عدل، والفلاحين مساكين. وأخير كونت تنظيم سرى من الشباب سميناه «الحاج مسعود» وكتبنا أوراقا علقناها على باب الجامع والدوار وعلى الحيطان مكتوب عليها ممنوع أى حد يأجر الفدان بأكثر من ثمانية جنيهات وإلا حنقلع زرعته، والتوقيع الحاج مسعود».

ثم «وقلعنا زراعات كثير لكن الغارم كان آباءنا وأعمامنا والحوت لم يخسر شيئا، ومرة أخرى التف الشباب حولى وسألونى تعمل إيه وقلت الحل نضرب العمدة علقة سخنة علشان نكسر هيبته، لكن الشبان ارتجفوا وسألونى ومين يقدر يعمل كده وأجبت أنا، وهكذا فإن عصاه التى اعتادت أن تقيم الحق والعدل فى المحلة آن لها أن تقيم الحق والعدل فى نهطاى، وذات يوم كان العمدة يسير فى خيلاء المتجبرين وبصحبته أحد أقاربه أسرع على نحوه وواجهه لأنه لا يجوز لفتوة أن يضرب خصمه فى ظهره، ويحكى عم على

«فوجئ العمدة بى وأنا أمامه وحاول أن يشخط فى لكن ضربته بالعصاية وطوحت عمته وكسرت أسنانه وشفته انشقت ونزف كثير وضربة ثانية سقط العمدة على الأرض» قامت الدنيا ولم تقعد فعلى لم يضرب شخصا عاديا لكنه ضرب العمدة وعين أعيان الناحية وعضو مجلس المديرية، وفى التحقيقات لم يشهد أحد من الفلاحين ضد على، كلهم قالوا «الكدب خيبة يا باشا أنا مكنتش موجود وماشفتش حاجة، وأفرج عنه قاضى التحقيق وانطلقت الزغاريد تهز كل أرجاء القرية، ورجال كثيرين فى القرية كل واحد حلف بالطلاق إنه لازم يدخل بيته ويشرب الشربات ويقول على «شربت يمكن أكثر من ١٠٠ كباية شربات»، وفى غمرة الزهو بنفسه نسى على المصنع والمحلة والأجرة والبوظة والفتونة وانتقل بفتونته إلى نهطاى، يتمشى كل يوم فى القرية رافعا عصاه، عمد البلاد المجاورة أرسلوا إليه طالبين حمايته، وحاول الحوت أن يستأجر من يقتل على لكن كل أشقياء الناحية رفضوا وأبلغوه لكى يأخذ حذره وبعد فترة وصل تقرير الطبيب الشرعى «العمدة أصيب بعاهة مستديمة» وأحيل على للمحاكمة وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات سجنا مع النفاذ قضاها فى سجن طنطا.

وفى عام ١٩٤٢ يفرج عنه فيخرج إلى المحلة ليجد زملاء الزمن القديم وهم لايزالون على العهد وليجد المغنين فى مقاهى أبناء الغربية فى المحلة يغنون موالا عنوانه «حكاية على والحوت»، حاول العودة للعمل ولكن أمن المصنع لا يمكن أن يسمح بالعمل لمن يتغنى الناس باسمه فى المواويل، فيضطر «على» للرحيل إلى شبرا الخيمة حيث وجد أن مواويله قد سبقته إلى هناك بعد أن أضاف إليها كل مغنى حكايات وأساطير من عنده.

وشبرا الخيمة كانت بؤرة ثورية، إضرابات عمالية متلاحقة، تنظيمات عمالية فى شكل لجان مندوبى المصانع، ثم إضراب شبرا الخيمة الكبير وفروع «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال».

وهنا فى هذا الخضم الرائع من النضال العمالى يتحول عم على طلخان إلى زعيم نقابى وعمالى حقيقى.